بناء الخطـــاب التعجيبي في المقامة الموصلية
بين هيمنـــة الواقـــع و سعـــة المتـــخيل

الدكتور عبد المجيد رخروخ – جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف – الجزائر

الملخص باللغة لعربية:

يسعى البحث إلى إظهار بنية الخطاب التعجيبي في المقامة الموصلية، و مدى فاعلية السخرية من ناحية، و السذاجة من ناحية أخرى في بناء الخطاب المقامي، بنية تعجيبية جعلت من الكاتب يلغي سلطة الواقع ممثلة في العقل و الدين، و يجنح إلى الارتماء في أحضان عوالم متخيلة استطاع من خلالها – إلى حد كبير – البوح بما يشغله من هواجس كانسان، عوالم امتطت التعجيب في رصد الأحداث، و كشف المواقف.

الملخص باللغة الفرنسية :

Le dessein de cette recherche est de montrer la structure du discours fantastique dans « la maqama elmaoussilia », l'efficacité de l'ironie d'une part et celle de la naïveté d'autre part dans la structure de « la maqama », en tant que structure fabulée ayant mené l'auteur à écarter l'autorité du réel représentée dans la religion et la raison, et se plonger dans des mondes imaginés à travers lesquels il a pu divulguer ce qui le préoccupait en tant qu'homme, des mondes fondés sur la fabulation pour observer les événements et dévoiler les situations.

يبدو أنّ الخطاب الأدبي تعبير عن هواجس الإنسان ومحاولة للإجابة عنها وترجمتها في حدود إدراكه العقلي والوجداني ، بيد أنه قد يستعصي عليه الإدراك ويفوق طاقته الاستيعابية كلما جنح هذا الخطاب إلى الارتماء في أحضان عوالم لا معقولة ، وغير معهودة تخالف ما تواتر لديه و ألفه ، إنّها عوالم تزخر بأحداث

عجائبية من حيث بنائها وكيفية رصدها من لدن هذا الكاتب أو ذاك " إذ الخطاب العجائبي ينكشف أكثر في الصوغ الحكائي والأسلوب المتميز ومسلسل البحث و التوهم و التعرف وتحطيم قوانين العالم و العقل"[1] المتداولة، فبديع الزمان الهمذاني في مقامته الموصلية ينقل لنا في خطاب حكائي تعجيبي مواقف و أحداث متخيلة ساخرة يكشف من خلالها عن فاعلية السذاجة في تشكيل عالم تتصارع فيه هيمنة الواقع و سعة المتخيل.

يعتقد أنّ الخطاب العجائبي (Discours Fantastique)المشكّل لهذه المقامة يتنازعه عالمان مختلفان من حيث تصور العقل البشري و إدراكه لهذا العالم أو ذاك ،فـــ" قبل أن يكون الخطاب رؤية للكون، فانه اشتغال في نسق اللغة (...) انه اشتغال يبدأ من اللغة ليكوّن التعبير عن العالم و ذلك عبر تفجير إمكاناتها التخييلية ، وعن طريق الاستعمال الجميل لممكناتها، أي الانتقال من محتمل الخطاب إلى اللامحتمل مما يعني تحقيق ما يخترق الاتساق الضروري للفعل التواصلي"[2] المعهود، عالم يحكمه الدين و العقل في كون الإنسان الميت في الإسلام–إن ثبتت وفاته– لا حياة له بعدها في الدنيا، ناهيك عن قدرة السيل الجارف الذي يتربص بالقرية وأهلها لقادر على تدميرهما، دون الاستعانة بأشياء لا تمت البتة بصلة إلى سبل صد هذا الطوفان، من مثل ذبح بقرة صفراء والزواج بجارية عذراء، أضف إليهما

---

[1] ت.تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي ، ترجمة :الصديق بوعلام ، دار الكلام ، الرباط ،المغرب، ط01 ، 1993، ص 20.

[2] حسين علام ، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، لبنان /منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط01 ، 2010 ، ص 43.

الصلاة خلف البطل أبي الفتح الإسكندري ركعتين كما يروي عيسى بن هشام في هذه المقامة، إلا في عالم ثان اختلقه الهمذاني بخياله لا لشيء إلا طمعا في المال بحيل واضحة و مكشوفة من لدن البطل وشريكه الراوي، انطلت بسهولة على قومين مختلفين في موقفين غير متشابهين، فبقدر وضوح الخطاب التعجيبي الذي شارك فيه البطل و ساهم في نسجه لهذه الحيل الواهية رفقة صديقه عيسى بن هشام يتضح أكثر هذا الخطاب و يتشكل في هذه المقامة بجلاء في سذاجة هذين القومين وغبائهما المفرط الذي أنتج هذه الأحداث اللامألوفة .

تعد المقامة الموصلية حكاية (قصة) أو مغامرة ساخرة هدفها التكدية أي كسب المال بالحيلة بطلها أبو الفتح الإسكندري بمساعدة الراوي عيسى بن هشام في قالب تعجيبي للمبدع العربي قديما فضل السبق فيه "فالنص الخوارقي يمارس فعل إبداع مغامر مذهل(...)في لعبة صرنا اليوم بغباوة نتعلمها من غابرييل غارسيا ماركيز، وننسب ابتكارها إليه في النصف الثاني من القرن العشرين وهي عريقة في الكتابة الإبداعية العربية عراقة هذا الإبداع ولغته وتاريخه"[3] وامتداداته الثقافية والتاريخية والدينية.

تقطيع الخطاب :

حتى يتسنى لنا الإلمام ببنية خطاب المقامة ههنا ينبغي أن نقطّعها إلى مقطعين سرديين معتمدين في ذلك على تعريف غريماس ((Greimas.(A.J) "إذ كل مقطع سردي يكون قادرا على أن يكون لوحده حكاية مستقلة، وأن تكون له

[3] كمال أبو ديب ، الأدب العجائبي والعالم الغرائبي في كتاب العظمة وفن السرد العربي ، دار الساقي ، بيروت ،لبنان، ط01، 2007 ، ص11.

غايته الخاصة به ،غير أنه يكون قادرا أيضا على الاندماج داخل حكاية أكبر توسّعا مؤدّيا وظيفة خاصة داخلها"[4]منوطة به، إذن فإننا نزعم وجود مقطعين سرديين كبيرين يشكّلان هذه المقامة هما:

1- **المقطع الأول:** الراوي عيسى بن هشام والبطل أبو الفتح الإسكندري يحتالان على أهل الميت"حدثنا عيسى بن هشام قال:لما قفلنا من الموصل (...) فانسللنا هاربين "[5]

2- **المقطع الثاني:** الراوي عيسى بن هشام و البطل أبو الفتح الإسكندري يحتالان على أهل قرية حاصرها السيل "حتى أتينا قرية على شفير واد يطرفها (...) ـــــــــ وكلت زورا ومينا"[6]

ينجلي من خلال المقطعين السالفي الذكر أن البطل أبو الفتح الإسكندري بمعية الراوي عيسى بن هشام قد استطاعا بسهولة إنجاح حيلهما المكشوفة على هذين القومين في قالب ظاهره جد وباطنه من قبله السخرية والاستخفاف بعقول أناس سذّج مغفّلين لا حول لهم ولا قوة سوى الاستسلام المهين وغير المبرر لمثل هذه الحيل التي تمكنت من وعيهم بسهولة قل لها مثيل.

بنية الخطاب المقامي:

تقوم بنية الخطاب في هذه المقامة على هدف الكدية ما فحواه تحصيل المال بالاحتيال، و هذا واضح جلي في "... لنا في هذا السواد نخلة ، و في هذا القطيع

---

(4) Greimas .(A.J) Du sens. ED-Seuil , Paris 1970 ,p 268.

(5) الهمذاني ، مقامات بديع الزمان الهمذاني ، تحقيق وشرح : محمد حسني مصطفى، دار القلم العربي، حلب،سوريا ط01، 2003 ، ص 80-81-82.

(6) المصدر نفسه ، ص 82-83.

سخلة ..." لقد تفاءل البطل بحظ وافر من المال والعطايا منذ الوهلة الأولى عند قدومه عارضا يد المساعدة على أهل الميت بإحياء هذا الأخير "...فلما رآه الإسكندري أخذ حلقه فجس عرقه ،فقال :يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه فهو حي (...) و أنا أسلّمه مفتوح العينين بعد يومين ".

و الهدف نفسه لمّا يدّعي أنه قادر على إيقاف السيل و خطره "فقال الإسكندري :يا قوم أنا أكفيكم هذا الماء و معرته ،و أرد عن هذه القرية مضرته" من هذين الموقفين الطريفين يمكن استجلاء بناء الخطاب التعجيبي في هذه المقامة من ظاهرتين هما :**السخرية والسذاجة .**

أ- السخرية بوصفها خطابا تعجيبيا:

يتراءى من الوهلة الأولى أنّ البطل أبو الفتح الإسكندري و شريكه الراوي عيسى بن هشام مصممان على كسب المال بالحيلة مهما كانت النتائج و كيفما توفرت الوسائل "... لنا في هذا السواد نخلة و في هذا القطيع سخلة " فهذا الميت معزته بادية في حياته من قبل أهله لحزنهم الشديد عليه وعويلهم المستمر بفقده،وإذا به يهان بعد موته من لدن أبي الفتح الإسكندري الذي يستدرج أهله ليشاركوه السخرية(Ironie) منه ،وذلك حين ادعائه لهم أنه حي لم يمت "إن الرجل إذا مات برد إبطه و هذا الرجل قد لمسته فعلمت أنه حي.فجعلوا أيديهم في إبطه ،فقالوا الأمر على ما ذكر " هنا المفارقة (Paradox) تؤدي دورها في بناء السخرية فهي نابعة من الجمع بين "عناصر متباعدة في الواقع أو المزج بين حقائق

متباينة بطبيعتها، أو التوفيق بين ظواهر متنافرة في العالم الخارجي "[7] الواضح للعيان،لتجعل من الخطاب تعجيبيا غير معقول ما دامت" المقامات نوع من السرد المخادع،فخلف الجدة الظاهرة و الوقار اللفظي و الأسلوبي يقبع هزل عميق غير ظاهر ،أول مظاهر ذلك الهزل قلب الحقائق و تمويهها "[8]و تزييفها.

لكن المفارقة مستمرة لمّا يطلب أبو الفتح من ذوي الفقيد أن يتركوه يومين حتى يتسنى له شفاءه في حد زعمه متبعا في ذلك أساليب ما هي في حقيقتها إلا تمويها واضح لا غير،وقتها تنهال عليه وشريكه عيسى العطايا من كل حدب وصوب، ثم يحاولان الهرب دون فائدة ،و بعد مرور اليومين و يوم آخر يطلب منه أهل الميت إحياءه أو شفاءه على حد ادعائه ،و ثمة يسخر أبو الفتح من هذا الميت الذي عاش جليلا في حياته مرة أخرى، عندما يحاول إيقافه فيسقط على الأرض بلا حراك،و لا يملك حينها أبو الفتح إلا أنه يقر بموته فيقول:"هو ميت كيف أحييه؟" ثمة يلاقي ما كان يجب أن يلاقيه من البداية من شتى أساليب الضرب والتعنيف.

إن سخرية البطل والراوي ههنا بالميت و أهله لهي التي ساهمت في بنا ء خطاب تعجيبي ما يمكن أن يقال عنه أنه تباين جلي بين هيمنة الواقع ممثلة في العقل و الدين، وبين سعة الخيال التي راح من خلالها الهمذاني يرسم عالما لا معقولا فـــ" هذا النوع التعبيري هو حديث عن تشكيل معين يولد طريقة في التعبير تعتمد

---

[7] زكرياء إبراهيم ، سيكولوجية الفكاهة والضحك ، مكتبة مصر ، القاهرة ، مصر ، د ط ، د ت ، ص 161.

[8] عبد الله إبراهيم ، موسوعة السرد العربي ، المركز العربي للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط01 ، 2005 ،ص 245.

إبراز التناقض والمفارقة "[9] والدهشة غير مكترث بالمألوف والمعهود و المتداول لدى المسلمين في تقديسهم للميت والابتعاد عن العبث به، بل وجوب مواساة أهله ضروري بعيدا عن التمادي في الانتهازية والاستهانة ، ما دمنا في موضع جد كون "طريقة الهزل (...) مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مجون وسخف بنـــزاع الهمة والهوى إلى ذلك" [10]سخف قل نظيره في الحياة بين بني البشر.

تبقى المفارقة الأخيرة في هذه المقامة حين نجد البطل و الراوي ينسحبان إلى قرية أخرى يكاد السيل يجرفها ، إذ يستغل أبو الفتح سذاجة ساكني القرية، فيدّعي انه بمقدوره صد السيل إن ذبحوا له بقرة صفراء في مجرى السيل، وزوجوه بجارية عذراء ، و صلّوا خلفه ركعتين طويلتين ينبغي فيهما الخشوع "فقال الإسكندري: يا قوم أنا أكفيكم هذا الماء و معرّته (...)اذبحوا في مجرى هذا الماء بقرة صفراء و أتوني بجارية عذراء و صلوا خلفي ركعتين يثن الله عنكم عنان هذا الماء " و لما اشتغل ساكنوا القرية بهذه الصلاة المفتعلة وسجودهم فيها، إذا بأبي الفتح يومئ لعيسى بالهروب ، وبالفعل ينبغي لهما ذلك من دون عقاب.

ب- السذاجة بوصفها خطابا تعجيبيا :

تنطلي حيّل أبي الفتح الإسكندري و شريكه عيسى بن هشام بسهولة دون عناء تفكير على من قل عقلهم و كثرت غفلتهم و تراءت سذاجتهم ، سذاجة اتضحت من البداية فكيف يعقل أن يصدّق شخص من مثل أبي الفتح في ادعائه القيام بما قام به الأنبياء – بأمر الله – من معجزات؟! في شكل حيل واضحة

---

[9] شعيب حليفي ، شعرية الرواية الفانتاستيكية ، دار الحرف ، المغرب ، ط02 ، 2007 ، ص 44.

[10] أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية ، تونس، دط، 1966، ص 327.

مكشوفة سهل فكّها و التفطن إليها إلا في عرف هذين القومين ، فهنا تكمن المفارقة في هذه المقامة في أن حال هؤلاء الناس السذج الذين ينساقون وراء كل شيء مهما كان بلا حساب للعقل والمنطق، من دون إدراكهم أنّ عصر المعجزات قد ولى من دون رجعة، بموت الأنبياء و خاتمهم محمد عليه أفضل الصلاة و أزكى التسليم،فعلى الرغم من أننا قد نضحك مما فعله هذان المحتالان أبو الفتح الإسكندري وعيسى بن هشام بهؤلاء الناس السذج المغفلين ، فإننا نحس بقدر من الرثاء لجهلهم و سطحية تفكيرهم ، و بنية عقولهم مما يؤدي بنا إلى الشعور بأن هناك فئات كبيرة من البشر في ذلك العصر، كانت بالفعل نائية عن الثقافة والمعرفة ومنطقة الأمور، وحسن إدراكها قبل ذلك ، فهذه المقامة خطاب " عجائبي ناتج عن انحراف مقصود عن المعايير القائمة ، و هكذا عكست الثقافة العربية نفسها في " ثقافة مضادة " يمثلها الماجنون و الشعوب الأجنبية والمُكَدُّون و حيل التاريخ الماكرة "[11] غير المألوفة .

إذّاك يمكن القول إنّ ظاهرتي السخرية و السذاجة قد استطاعتا الحضور بقوة في بناء خطاب تعجيبي من خلاله "يلبس أبطال المقامات كل مرة لبوسا خاصا لطعن نسق ثابت من القيم، لا يظهر نسق القيم الثابتة،لكنه عبر تكرارية الاحتيال، و الإيماءات المضمرة، و تمثيل الأدوار السخيفة، و قبول الذل "[12]المقصود لحاجة في أنفسهم ، مادامت السخرية ههنا مثّلت خطابا تعجيبيا في الحدث الذي تمظهرت من خلاله في كون البطل والراوي انتهازيان بامتياز إذ استثمرا بحيلهما

---

(11) عبد الفتاح كيليطو ، المقامات –السرد والأنساق الثقافية ، ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي ، دار توبقال ، الدار البيضاء،المغرب ، ط02، 2001 ، ص 42.

(12) عبد الله إبراهيم ، موسوعة السرد العربي، ص 242.

التي راحا بها يعبثان بالميت وأهله دون وضعهما في الحسبان قدسية هذا الحدث في الدين الإسلامي، استثمارا سخيفا ومقصودا، لا لشيء إلا طمعا في المال، وأي مال يجنى من وراء استهانتهم بميت وأهله في صورة كاريكاتورية مفبركة من الأساس؟!، ناهيك عن السذاجة الكامنة في عدم التفطن لهذه المسرحية الهزلية البغيضة وكشفها، إذ يعد انصّياعهم لادّعاءات البطل والراوي ضربا من الجنون المنبعث أصلا من غفلة قلّ نظيرها بين بني البشر.

الأمر الذي جعل هذه الغفلة تحقق خطابا تعجيبيا ناصعا في بنائه، يفوق بكثير سخرية البطل والراوي بهذين القومين الموغلين في براثن الجهل والتخلف المّ نقل الجنون.اللهم إلا إن كان " الواقع الذي تنتجه النصوص ليس في الحقيقة إلا واقعا ورقيا " [13] يتعارض في غالبيته مع ما هو مألوف لدى الإنسان دون نفيه أوطمسه أو إلغائه كلما احتكمنا كلية إلى معايير العقل و المنطق وحدهما.

وبناء عليه، يظهر الخطاب التعجيبي ملاذا فسيحا يفتح للإنسان هوامش للتّعبير عمّا يختلج في نفسه من أحاسيس و هواجس تؤرّقه على الدّوام، هوامش تنـــزاح به من قلق واقعه المعيش إلى رحابة عوالم متخيَّلة، قد يرى فيها إجابات عن الأسئلة الّتي يطرحها باستمرار، هذه الإجابات الّتي قد تثير في نفوس متلقّيها التّردّد والاستنكار أكثر ممّا تؤنسهم وتواسيهم، ما دامت تبدو غير مألوفة لديهم في أشكالها ومضامينها على الرَّغم من أنّها في حقيقتها ما هي إلاّ ترجمة وّاعية

[13] حسين علام ، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد ، ص 37.

لهواجس مشتركة تختلف باختلاف المكان والزّمان، ناهيك عن تعدّد زوايا النّظر والاشتغال.

قائمة المصادر والمراجع :

1. أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية ، تونس، دط، 1966.
2. ت.تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي ، ترجمة :الصديق بوعلام ، دار الكلام ، الرباط ،المغرب، ط01 ، 1993.
3. حسين علام ، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، لبنان /منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط01 ، 2010 .
4. زكرياء إبراهيم ، سيكولوجية الفكاهة والضحك ، مكتبة مصر ، القاهرة ، مصر ، د ط ، د ت.
5. شعيب حليفي ، شعرية الرواية الفانتاستيكية ، دار الحرف ، المغرب ، ط02 ، 2007.
6. عبد الفتاح كيليطو ، المقامات –السرد والأنساق الثقافية ، ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط02، 2001.
7. عبد الله إبراهيم ، موسوعة السرد العربي ، المركز العربي للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط01 ، 2005 .
8. كمال أبو ديب ، الأدب العجائبي والعالم الغرائبي في كتاب العظمة وفن السرد العربي ، دار الساقي ، بيروت ،لبنان، ط01، 2007 .
9. الهمذاني ، مقامات بديع الزمان الهمذاني ، تحقيق وشرح : محمد حسني مصطفى، دار القلم العربي، حلب،سوريا ط01، 2003 .
10. Greimas .(A.J) Du sens.ED-Seuil , Paris 1970 .